المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفى هذا ترهيب منها ؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف تخشى الإقدام على الجريمة .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى عن الحلف والكذب الذى كان يفعله المنافقون ؛ فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

وفى هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حلقات الحلف بالكذب للمنافقين ؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عرضة لأيمانهم ؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلامٌ مُدَّعىً .

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها فى غزوة تبوك التى حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة فى فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد فى هذه الفترة يفضل الجلوس فى الأخياف [1] ، أى الحدائق

---

(١) الأخياف فى اللغة : أماكن وسط بين مجرى السيل فى الجبل ، وبين صخوره ، تنبت فيها الحشائش . انظر لسان العرب (مادة : خ ى ف) .

الصغيرة ، ويجلسون تحت النخيل والشجر فى جو رطب ولا يرغبون فى القيام من الظل .

وعندما دعا رسول الله للجهاد فى سبيل الله ، والذهاب إلى قتال الروم ، تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد ؛ فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدقاً فنحن شرٌ من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صَدق رسول الله ﷺ وأنتم شر من الحمير . وأنت يا جلاس شر من الحمار . وهنا قام عدد من المنافقين ليفتكوا بعامر بن قيس الأنصارى ؛ لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه . وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله ﷺ ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث . وتركه رسول الله ﷺ بعد أن حلف بالله . وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء ، وقال : اللهم إنى أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد ﷺ تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . فقال رسول الله ﷺ « آمين »[1] . ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحى بقول الحق جل جلاله : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ .

وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب ؛ فيما رواه عامر بن قيس وأنكره الجلاس .

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله ﷺ ؛ فقال سبحانه : ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ ذلك أن الله تبارك وتعالى

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١ - ٣٧٣) .

أراد أن يُعلم المنافقين أن سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط فى حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد- عليه الصلاة والسلام - إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر ؛ وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تآمروا على حياة النبى ﷺ واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة ، والعقبة هذه هى مجموعة من الصخور العالية التى تعترض الطريق ، فيتحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون [1] أن يدفعوا رسول الله ﷺ من أعلى الصخور ، فيسقط فى الوادى ، ولكن حذيفة بن اليمان الذى كان يسير خلف ناقة رسول الله ﷺ تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم ينالوا ما يريدون ، مثلما لم ينالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدون العُدَّة ليجعلوا عبد الله بن أبىّ ملكاً عليهم ، ولكن مجىء رسول الله ﷺ لم يُمكنهم من ذلك.

وقيل : إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس ؛ لأنه أبلغ رسول الله ﷺ ما قاله الجلاس بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا.

---

(١) كانوا اثنى عشر رجلاً ماتوا محاربين لله ورسوله . عن حذيفة بن اليمان قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوقه . حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكباً ، قد اعترضوه فيها ، فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ : هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ فى العقبة ، فيلقوه منها . قلنا : يا رسول الله أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم ، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالدبيلة . قلنا : يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠ ، ٢٦١) وفيه عنعنة ابن إسحاق .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ و ﴿ نَقَمُوا ﴾ تعنى : كرهوا ، والغنى - كما نعلم - أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف فى حكمهم ؛ لأن الغنى والأمن الذى أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية . بل كان من الطبيعى أن يولد حباً وتفانياً فى الإيمان.

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد ؟ وماذا تكرهون فيه ؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى ؟

وقبل أن يأتى رسول الله ﷺ ، كان الذين كرهوا مجىء الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا فى الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأغناهم الله [1] ؛ بل إن الجلاس بن سويد لما قُتل له غلام دفع له رسول الله ﷺ اثنى عشر ألف درهم ديّة . إذن: فقد جاء على يد الرسول ﷺ الغنى للجميع ، فهل هذا أمر تكرهونه ؟ طبعاً لا. ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم فى الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناكم بمجىء رسوله ؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله ﷺ ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا فى الإيمان به ونصرته.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال « الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ لأن الله لا يُثَنَّى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله .

ولذلك عندما سمع رسول الله ﷺ خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد نجا ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله ﷺ : بئس خطيب القوم أنت ؛ لأن الخطيب جمع جَمْعَ تثنية بين الله ورسوله.

---

(١) قال الكلبى : « كانوا قبل قدوم النبى ﷺ فى ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، فلما قدم عليهم النبى ﷺ استغنوا بالغنائم » ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٢) .

وهنا توقف الخطيب وقال: فماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : قل ومَنْ يعْص الله ورسوله فقد هلك [1] ، ولا تقل: عصاهما ، لا تجمع مع الله أحداً ولا تُثنِّ مع الله أحداً ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يَقُلْ « أغناهم الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله ﷺ فضل ؛ فهو من فضل الله .

وعلى أية حال فالله لا يُثَنَّى معه أحد ؛ ولذلك نجد فى القرآن الكريم:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد فى الرضا ؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله ﷺ يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثَنَّى معه أحد.

وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما فى قلوبهم ؛ لم تتخلّ رحمته عنهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ، وفَتْحُ باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها ؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل ، فلا بد أن يستشرى فى الذنب ، ويزداد فى الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أى إنسان يخطىء أن باب التوبة مفتوح ؛ فهو لا يستشرى فى الإثم ، ثم إن الذى يعانى من الشرور والآثام حقيقة هو المجتمع ككل ، فإذا وُجد لص خطير مثلاً ؛ فالذى يعانى من سرقاته هو المجتمع . وإذا وُجد قاتل محترف فالذى يعانى من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع.

(١) عن عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٥٦ ، ٣٧٩) وأبو داود فى سننه (١٠٩٩) .

إذن: ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع ؛ لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء فى إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق ، وبيّن للرسول ﷺ وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يخفونها ؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله . لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لَصَادقٌ فيما قاله عنى. وتاب الجلاس وحسُن إسلامه[1] .

أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . إذن : فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم ، لا فى الآخرة فقط ، ولكن فى الدنيا والآخرة . وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة فى الدرك الأسفل من النار .

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب فى الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض فى الدنيا ؛وأرض فى الآخرة هى أرض المعاد[2] ؛مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن: فكلمة ﴿ الْأَرْضِ ﴾ تعطينا صورتين فى الدنيا وفى الآخرة .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يوضح لنا أن الوليّ هو القريب منك الذى تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد

(١) انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (ترجمة ١١٧٢) .

(٢) قال أبو يحيى الأنصارى فى فتح الرحمن (ص١٧٠) : « لما كانوا لا يعتقدون الوحدانية ، ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولى والنصير مقصوراً على الدنيا ، فعبر عنها فى الأرض أو : أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة » .

إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك، أما النصير فهو من تطلب منه النصرة . وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن: فلا الوليّ القريب منك ، ولا الغريب الذى قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا لك شيئاً ، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين ؛ فيقول:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ وَمِنْهُم ﴾ أى: من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم فى هذه السورة الكريمة، فقال : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، واختلفت روايات المفسرين والرواة فى مدلول قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ . فقال بعضهم: إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون : إنه مُعتِّب بن قشير ، وقال رأى ثالث: إنه الجد بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبى بلتعة . كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة (١) ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ولم يقل الحق : « فلما آتيناه من فضلنا بخل به » بحيث ينطبق على حالة واحدة ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [التوبة]

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٤) هذه الروايات ، ورجح أنها نزلت فى ثلاثة من المنافقين : نبتل ابن الحارث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير . أما كونه ثعلبة بن حاطب فقد رفضه القرطبى ؛ لأنه شهد بدراً ، أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقد فرّق بين الذى شهد بدراً وغيره . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (ترجمة ٩٢٤) .

إذن: فهناك جمع . والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة فى أن الآية الكريمة نزلت فى أفراد متعددين ، وسبحانه يقول :﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله ؟ نقول : لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : أعاهد الله على كذا وكذا ؛ تماماً كما يأتى الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد فى الصف الأول للمصلين ، فهل منعه النفاق من الصلاة ظاهراً ؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه .

وقصة الآية [1] : أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : إنى فقير مملق - أى شديد الفقر - فادع لى الله يا رسول الله أن يوسع علىّ دنياى . وبفطنة النبوة قال ﷺ : إن قليلاً تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاوده وقال : ادع الله لى أن يوسّع علىّ . فدعا له فوسّع الله عليه .

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق ؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه ؛ فكيف يجيب الله رسوله فى طلب منافق منه ؟

ونقول : ربما كان ذلك ؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أجيب ؟

فلما دعا رسول الله ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعْلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله ؛ وإن دعا لأى أحد يُجِبْه الله ، فتكون هذه للنبى ﷺ .

فلما دعا رسول الله لثعلبة ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبى بلتعة ؛ استجاب الله لدعاء رسوله ؛ وأعطى مَنْ سأل الدعاء مالاً وفيراً ، وقالوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من الأغنام قد تناسلت

(١) سبق تخريج هذه القصة عند تفسير الآية ٥٣ من سورة التوبة .

حتى ضاقت بها شعاب المدينة ؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامتلأت ، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة ، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا في يوم الجمعة ؛ فلما كثرت كثرة فاحشة ؛ شغلته أيضاً عن صلاة الجمعة . وفي ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له . إذن : فكل الأمر إنما جاء تأييداً لمنطق الرسول معهم ؛ حتى يُسفِّههم في أنهم نافقوا في الإسلام.

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنه في الشعاب شغله ماله. فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة [1] ؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فذهب عامل الصدقة إليه، فلما قال له: هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك . قال : أهي أخت الجزية [2] ؟ وذكَّره عامل الصدقة : أنت الذي عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فما لك لا توفي بالعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة: اذهب حتى أرى رأيي.

إذن: هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه في قوله: « قليل تؤدي شكره ، خير من

(١) وذلك حينما نزلت آية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] . فثعلبة هنا كان قد عاهد الله لئن رزقه وأعطاه ليتصدقن ، ولم تكن محددة فلما نزلت آية : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ..﴾ [التوبة:١٠٣] وفرضت الزكاة رفض إنفاذ ما عاهد عليه الله . وهذا نظير ما حكاه رب العزة عن بني إسرائيل: ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٦] .

(٢) الجزية : هي مبلغ من المال يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، وقد فرضها الإسلام عليهم في مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها ، وهي تجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً. ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب. انظر: فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧).

كثير لا تطيقه » ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله بردِّ ثعلبة. قال ﷺ : ويح ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرآناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ ، وعرض عليه الزكاة . فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أراد ﷺ بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله فى غنى عن مالك يا ثعلبة .

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبى بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفى أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبى بكر . وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك فى عهد عثمان .

﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، وكلمة ﴿لَئِنْ ﴾ قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال : أقسم بالله إن آتانى الله مالاً لأفعلنَّ كذا . وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام فى جواب القَسَم ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ و«الصدقة» هى الصدقة الواجبة أى الزكاة ، و﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: نزيد فى التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولله عطاءان : عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . و«عطاء الأسباب» يتمثل فى أن يَجدَّ الإنسان فى أى عمل من الأعمال ؛ فيعطيه الله ثمرة عمله ؛ مؤمناً كان أو كافراً ؛ طائعاً أو عاصياً ؛ لأن الإنسان قد أخذ

الأسـباب وأتقنـها ، ولذلك تجد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون فى سعة ؛ لأنهم يحسنون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذى استدعاهم للوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضنّ عليهم ؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصى ، والمطر ينزل على الأرض . وكذلك كل شىء فى الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب .

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل فى عطاء الأسباب ، كمن يسير فى طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يـأتى عليـها ريـح أو إعـصـار يقلل من ناتج المحصـول . ويبـارك له الحق سبـحـانه فى بيع محصوله ، ويبارك له فى رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله . وهذا كله اسمه عطاء الفضل . وعطاء الأسباب عَامٌّ للناس جميعاً . أما عطاء الفـضل فـهـو خـاص بأوليـاء الله الذين أخلصـوا عـملهم لله طاعـة وامتثالاً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ دليل على أن الرزق الذى جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها . بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله . فالتكاثر الذى حدث فى أغنام ثعلبة لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ،بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتى بأكثر من وليد ، والعشب الذى ترعاه يُدرّ كمية كبيرة من اللبن .

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ ما هو البخل ؟ هناك فى اللغة أسماء للامـتناع عن العطاء ، فـهناك بُخْل ، وشُح ، وكـزازة ، وكلهـا أسـمـاء للامتناع عن عطاء شىء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف ؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطى إلا من سأله ؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطى كل

من سأله ، بل يعطى من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول : ولدى مريض ، أو احترق بيتى ، فالسائل هنا لا يسأل فقط ، ولكنه يجىء بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطى بغير سؤال .

هى إذن : ثلاث مراحل للعطاء ؛ واحد يعطى من يراه هكذا ؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، ينير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هى يد الله عند خلق الله . بل إن هناك أناساً يعاتبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة ؛ كالرجل الذى ذهب فطرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئاً من مال وأعطاه للسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذى أعطى مالاً رجع يبكى . فقالت له : وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه ؟ فقال : يبكينى أننى تركته ليسألنى ، أى : أنه يبكى لأنه لم يملك فطْنةً تجعله يستشفُ مسائل الناس من حوله ليعطى المحتاجين بغير سؤال .

إذن : فواحد يعطى عن مسألة ؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطى من غير مسألة ، بل يعطى عن فضل عنده ، أى : يملك الكثير ويعطى منه . وثالث : يعطى نصف ما عنده ؛ يقاسمه فيما يملك ، أو يعطى أكثر ما عنده حسب ما ينقدح فى ذهنه من حاجة الإنسان المعطى .

هى إذن ثلاث مراحل : رجل يعطى من غير سؤال ، ورجل يعطى بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة ، ورجل يعطى بمجرد السؤال .

فمن هو البخيل ؟

أفظع درجة للبخل ؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبَّبة بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ واحد من هؤلاء لم

يبخل فقط ، بل انصرف عن الذى يسأله ، مثل الذى انصرف عن العامل الذى جاء يأخذ الصدقة ، وقد كان عليه - مثلاً - أن يُجْلس العامل ، ويقدم له التحية الواجبة ؛ ثم يقول له سنرى رأينا ، ولكنه تولَّى وأعرض عنه .

ويأتى الحق هنا بعقاب من يسلك مثل هذا السلوك فيقول :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أي : جعل العاقبة لهذا التصرف ؛ أن جعل فى قلوبهم النفاق ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أى : إلى يوم القيامة . وما دام الله قد قال هذا فمعناه أن الذى عمل مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها وبخل وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً . ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أخلفوا الله ما وعدوه فقال سبحانه : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : ﴿ كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً فى أنه قال : أهى أخت الجزية ؟ مع أنه يعرف أن الزكاة عن المال هى ركن من أركان الإسلام .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذى لم يكن معروفاً قبل ذلك ،

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ فيه همزة الاستفهام ؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾ [الفيل]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب له عدة صور : الصورة الأولى ؛ أن يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا «خبر» . والصورة الثانية : أن لا يخبر المتكلم مخاطبه بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقول الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك ؟ وكان فى استطاعته أن يقول « أنا أحسنت إليك » ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطى للخبر قوة ، فجعل الكلام من المستَفهَم منه ، وكأنه عرض الأمر مَعْرض السؤال فى معرض النفى ؛ ثقة فى أن المخاطَب لن يجد إلا جواباً واحداً هو : نعم أحسنت إلىّ .

إذن : فالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفى ، أو خبراً معه النفى ، أو خبراً معه الاستفهام . وأقوى أنواع الإخبار : الخبر الموجود معه النفى ، والموجود مع النفى الاستفهام ؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً . ولكن الاستفهام يقتضى جواباً من المخاطَب ، ولا يجيب المخاطَب إلا بما كان فى نفس المتكلم ؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطَب قد ينكر فلن يسأله . أو يقول لإنسان : أنا راضى ذمتك ، وهذا القول يعنى أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدير الكلام فى عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما هو السر ؟ وما هى النجوى ؟ السر : هو ما تكتمه فى نفسك ولا تطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسِرُّ به للغير ؛ لأن هذه هى النجوى ، وأصل النجوى البُعْد .

ويقال : فلان بنجوة عن كذا ، أى: بعيد عن كذا . وأصل النجوى أيضاً المكان المرتفع فى الجبل ، فكأن المرتفع بالجبل بعيد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب إنسان أن يكلم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ؛ فهو يستأذنه فى الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذى يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر (١)، ولذلك سموها المناجاة ؛ وهى كلام لا يسمعه القريب ؛ لأنك خفضت صوتك خَفْضاً يخفى على القريب ، فكأنه صار بعيداً.

إذن ، فالسر : هو ما احتفظت به فى نفسك ، والنجوى : هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك.

والذين منعوا الصدقة ، لابد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكلموا فى هذا الأمر - منع الصدقة - بعد أن صاروا أغنياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهروا فى إسلامهم مظهراً يفوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً فى الصفوف الأولى للصلاة كى يستروا نفاقهم.

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسرّوا فى نفوسهم كلاماً ؛ فهذا الإسرار فى النفس حين يُخبر به الله ؛ هو هتك لحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله ﷺ بما دار فى هذا الإسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضى . وذلك فى الأمور التى لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأها فى كتاب لأنه أمّى ، فأخبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه.

---

(١) وقد ورد النهى عن مناجاة اثنين دون الثالث ، فعن عبد الله بن مسعود قال قال ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) وأحمد فى مسنده (١/ ٤٣١) والترمذى فى سننه (٢٨٢٥) . وقال : حديث صحيح .

إذن : من أين جاء بذلك ؟ أعلمه به الحق سبحانه الذى يعلم خُبْأة [1] السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل ؛ فعلم ﷺ الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ ملكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث . وهذا هو هَتْكُ حجاب الزمن المستقبل ، وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان ﷺ يخبرهم عن شيء فى نفوسهم ، فقد أوحى له الحق:

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ⑧ ﴾ [المجادلة]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء لما قاله فى نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن الذى هتك الحجاب لرسول الله ﷺ ؟

إن الذى هتك الحجاب لرسول الله هو من يعلم السرّ وأخفى ؛ فلا توجد حجب غائبة عن الله ؛ لأن حجب الغيب إنما تكون على البشر ؛ حجاب ماض ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ أى : أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل علم الله سرّهم ونجواهم ؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب ؛ يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد .

إذن : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ تعنى أنه يعلم حتى ما حاولتَ كتمه وستره ، فقد قال سبحانه :

﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ... ⑯ ﴾ [لقمان]

---

(١) الخبأة والخبء : كل شيء غائب مستور . ويقول تعالى فى سورة النمل : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النمل: ٢٥] . وقال ابن أسلم : هو ما جعل فيهما من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض . (انظر : ابن كثير ٣/ ٣٦١) .

إذن: فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شيء.

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين.. فقال جل جلاله:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾

واللمز: معناه العيب، ولكن بطريق خفي، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك. إذن: فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون في المطوّعين لجمع الزكاة من المؤمنين، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول، ومن يعيب بالفعل، ومن يعيب بالإشارة، والمطوّعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله.

فالله فرض مثلاً خمس صلوات، وهناك من يصلي خمس صلوات أخرى تطوعاً، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً، وفرض الحق صيام شهر رمضان، وهناك من يصوم فوق ذلك كل اثنين وخميس. وهذا ما نسميه دخول المؤمن في مقام الإحسان؛ بأن تتقرب [1] إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك، من جنس ما فرضه الله.

---

(١) عن أبي هريرة قال قال ﷺ: « إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ». أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد في مسنده (٦/٢٥٦).

وأنت إن أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن فرائض الإسلام ثم قال : لا أزيد ولا أنقص ، فقال الرسول الكريم : « أفلح إن صدق »(١) .

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرِضَ يكون لها ملحظان : الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ؛ لأنه كُلِّفَ دون ما يستحق . والملحظ الثاني : هو أن عمل الطاعة قد خفّف على المؤمن فاستراح بها . ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »(٢) .

إذن : فالمطوِّع هو الذى يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله ؛ وهؤلاء هم المحسنون ؛ الذين قال الحق عنهم فى سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالمنهج لا يلزمنى بأن أنام قليلاً من الليل وأقضى بقيته فى الصلاة ، ولم يلزمنى أحد بالاستغفار فى الأسحار(٣) . ولم يقل الله سبحانه فى هذه الآية إن فى المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطى بأكثر مما فُرض. وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلْمز ؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر ؟ ولكنه اختلال موازين المنافقين فى

(١) عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . . . حتى ذكر صيام رمضان والزكاة . قال طلحة : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) ومسلم (١١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الأسحار : جمع سحر . وهو آخر الليل قبيل الصبح .

الحكم على الأشياء. لذلك اعتبروا الحسنة نقيصة ، تماماً كالذى يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه « إنه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله فى المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَأَفْنَوْه ، بينما تصدق هو به فأبقاه.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك فى مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه فى ماله.

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار [1] : أقاسمك مالى . قال : بارك الله لك فى مالك ، دُلَّنى على السوق . وذهب إلى السوق . وبارك الله له فى تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، وقال: يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقى لأهلى أربعة ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت ». وحينما مات عبد الرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف فى تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « تماضر » بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أى : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً. وكان عبد الرحمن لا يتاجر إلا فى ماله.

(١) آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى الأنصارى . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٢٥) .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا: ما تصدق عبد الرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده ؟ وجاء عاصم بن عدى ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حمْل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد بتُّ ليلتى أعمل ، وأخذت أجرى صاعين من التمر ، احتفظت لأهلى بصاع وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غنى عن صاعك يا أبا عقيل.

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدىّ قالوا : يرائى بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غنى عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى الكثير ، وسخروا ممن أعطى القليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم ؛ لأن كلاً منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ؛ قلَّ أو كثُر [(١)] .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيىء الذى تمثل فى مقابلة السلوك الإيمانى بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً. والسخرية هى الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوى للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

(١) عن أبى ذر قال قال لى النبى ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٧٣) .

فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء ؟

هناك جزاء من الله . وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر . فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذى يملكونه ؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطينا صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذى سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

وقلنا من قبل : إن الذى يخطىء فى حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذى يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذى ينتقم ويرد على من أخطأ فى حقه ، إنما يأخذ على قدر قُوَّته ، وأما الذى يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذَلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذى وقع الاعتداء عليه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى رب الاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته .

ولكن خير من ذلك أن تحس أن الذى أساء إليك فى حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك ؟ إن قلبك يكون مع الذى اعتدى عليه وأسيء إليه فتحاول أن ترضيه ، وتأتى إليه بهدية أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل : من آداب دينك - الإسلام - أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك ؛ لأنه

يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك. ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمت فعل البشر ، فحين يقول سبحانه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ... (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وحين يقول: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... (١٤٢) ﴾ [النساء]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر.

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتي لك بزهرة ، فيسقط في الحفرة وتتكسر عظامه.

إذن: فأنت قد كدْتَ له كَيْداً خَفِياً . والكيد والمكر لا يَدُلان على القوة ؛ إنما يدلان على الضَعف ؛ لأن الشَجاع القوى هو الذى يجاهر بعدائه ؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذى يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى النساء:

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوى لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسآتى بك عندما أريد ، لايوجد مكان تهرب فيه منى ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضى عليه تماماً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر.

ولذلك قال الشاعر:

وَضَعِيفَةٌ فإذَا أصَابَتْ فُرْصة قتلتْ كذلكَ فُرْصَةُ الضُّعفاء

أما القوى فإنه يقدر ويعفو ؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء.

والأصل فى المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدولة ؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التى تراها من أى فرع نبتت ، فيلتبس عليك الأمر، كذلك المكر تختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً ؛ لأن مكرك مفضوح عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدَّه الله لك.

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ فى الأمور العلنية فى المعارك ، ونصره أيضاً فى كل أمر مكروا فيه وبيَّتوه له . وعلى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله ﷺ ليقتلوه فى ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تَخْشَ مكرهم ، فخرج ﷺ ليجدهم نياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج ﷺ من وسطهم. ويأخذ التراب، ويلقيه عليهم وهو يقول: «شاهت الوجوه»[1] .

وعندما يبتعد ﷺ عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أفلت منهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيْل من رسول الله ﷺ ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفى .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (١/ ٣٦٨) ، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/ ٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/ ٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

فى فعله أكثر من العيب فى غيره. ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التميُّز فى فعل الله عن فعل البشر، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلقه جميعاً، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم.

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً، وهناك عذاب عظيم، وعذاب مهين، وكلها صفات للعذاب، فالعذاب هو الإيلام، ولكن هناك من يفزعه الألم فيصرخ. وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم؛ فيُهَانُ فى كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً.

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً، وهناك عذاب عظيم فى الإيلام وعظيم فى الإهانة. والعذاب العظيم فى الإيلام؛ أى مبالغ فيه من ناحية الألم. والعذاب العظيم فى الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة. والعذاب العظيم فى الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن، ولذلك يقال عنه «عذاب مقيم» أى: يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين. ومع أن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ... (٣٠) ﴾ [محمد]

أى: بمجرد نظر رسول الله إليهم، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة « منافق » وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ...(٣٠) ﴾ [محمد]

وبمجرد أن ينطقوا يعرفهم ﷺ من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر [١] ، بدون انقباض عن أحد ، حتى يتجلى نوره على الجميع، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم.

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، كان سيُتوَّج ملكاً على المدينة [٢] . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج ؛ فوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله ﷺ فقد ضاع منه المُلْك . وكان لعبد الله بن أبيّ ولد أسلم وحَسُن إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ حين علم أنه ﷺ سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه قال في غزوة من الغزوات [٣] . ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ...﴿٨﴾﴾ [المنافقون]

وكان ابن أبيّ يعني بـ « الأعز » المنافقين في المدينة ؛ وبـ « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨﴾﴾ [المنافقون]

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يحب هذا ، حتى أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث . أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩٦) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٢) أورد ابن إسحاق في السيرة أن قوم عبد الله بن أبي كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام(٢/ ٢١٦) .

(٣) هي غزوة بني المصطلق ، وقد كانت في شهر شعبان سنة ٦ هجرية . انظر سيرة النبي لابن هشام (٣/ ٣٣٤) .

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذى سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة .

ولما علم عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أن رسول الله ﷺ سيأمر بقتل والده عبد الله بن أبيّ ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله إن كنت ولابد آمراً بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ لأنى أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً .[1]

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسول الله ﷺ أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك[2] قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبى ، أى : اطلب له من الله المغفرة ؛ ولأنه ﷺ يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين ؛ لذلك طلب المغفرة لعبد الله بن أبيّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢) .

(٢) وذلك عندما توفى عبد الله بن أبيّ ، وأراد ابنه من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه ، فاعترض عمر ابن الخطاب ، فأعطاه قميصه ليكفنه فيه وصلى عليه . انظر الحديث الآتى بعد فى البخارى (٤٦٧٠) ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .